مجلة الرائد

العدد : ٢١٠ الموافق في صفر ١٤٢٠ هجري ٦ / ١٩٩٩ ميلادي

| عنوان المقال : هل هي عقلية المؤامرة ؟ | بقلم : أ. رشيد أبو أسامة |
|---|---|

عندما يكون خصمك أقوى منك من جهة ، ولا يتقيد بأية قيم ولا قوانين من جهة ثانية ، فإنه يملك شتى الوسائل ليفرض عليك إرادته ويخضعك لمصالحه

**مدخل:**

تتعدد أسباب فشل مشاريع النهوض والإصلاح ، من وهن في العزيمة إلى قصور في الجهد ، ومن انحراف عن الخط إلى خيانة للقضية ، ومن شح في الإمكانات إلى استعجال للنتائج ، ويظل الخطأ في تحديد طبيعة المعركة ، أو طبيعة العوامل العميقة المؤسسة للأزمة ، ( هل هي سياسية ؟ أم اجتماعية ؟ أم اقتصادية ؟ أم ثقافية شاملة ؟ أم داخلية ؟ أم خارجية ؟ ) ، أفظع هذه الأسباب وأثقلها تكلفة ، لما يترتب عنه من أضرار تفوق في خطورتها الفساد الأصلي المزمع إصلاحه ؛ تلك الأضرار التي تتم معالجتها ، إن تم الاهتداء إلى أقوم سبل العلاج ، إلا بعد عدة أجيال .

وما من شك في أن أزمة الأمة الإسلامية اليوم تعود لأسباب متعددة ومتداخلة ، لا يسعفنا في شيء اختزالها في بعض العبارات العامة ، التي لا تمكن من التحديد المباشر والفاعل لمجالات العلاج . وما لم يتم جرد موضوعي للعوامل المؤسسة لهذه الأزمة وفق عالمنا وعصرنا الذي عرف تحولات خلال العقود الأخيرة من هذا القرن تفوق في حجمها وعمقها ما عرفته البشرية عبر تاريخها الطويل ، فإن كل عمليات النهوض الجزئية ستظل قاصرة إن لم تكن مدمرة ، لما تجلبه من ردة فعل معادية تتجاوز إمكانية المواجهة لدى حركات الإصلاح .

**هل هي عقلية تآمرية ؟**

غالباً ما يتم الرد على الذي يتحدث عن الدور العميق للعامل الخارجي في أزمة أمتنا اليوم ، بأنه ينطلق من عقلية تآمرية ، ويتخذ من الغرب شماعة يعلق عليها إخفاقاتنا ويبرر من خلالها عجزنا .

فهل نحن أمام عقلية تآمرية ، أم أننا أمام عوائق خارجية موضوعية راسخة ؟

هل يكفي لكي تنهض الأمة ، أن نعدد الواجبات دون اعتبار لحقيقة المعوقات ؟

يجب أن نعلم أن كيد أعداء المسلمين الذي أخذ أشكالاً متعددة ، لم يفتأ منذ بعثة الرسول ﷺ ، ولم يجرؤ الصليبيون واليهود على اقتحام بلاد الإسلام ، بدءاً باحتلال أطرافها ، ومروراً بتقسيم بيضتها ، وانتهاء باحتلال معظمها ، إلا بعد أن ضعفت الجبهة الداخلية للمسلمين ؛ فالمنطلق الأساسي للأزمة كان

في البداية ، ولا شك ، داخلياً وذاتياً . ولكن هل ترك الاستعمار بعد رحيله بلاد المسلمين كما دخلها ؟ وهل ترك لها فرصة تلتقط فيها أنفاسها لإعادة بناء ذاتها " المستقلة " ؟

هناك حقيقة يجب أن يدركها المسلمون ويحسبون لها ألف حساب : عندما يكون خصمك أقوى منك من جهة ، ولا يتقيد بأية قيم ولا قوانين من جهة ثانية فإنه يملك شتى الوسائل ليفرض عليك إرادته ويخضعك لمصالحه .

وهكذا ، لم يغادر المستعمر الناهب بلادنا ، إلا بعد أن ترك على رأس السلطة في معظمها رجالاً هم أشد حرصاً على مصالحه منه ، وترك فيها من بؤر التوتر العرقية والجغرافية ما يمنحه مدخلاً دائماً لإثارة الفتن ، أو ذريعة جاهزة للتدخل باسم ما منحه لنفسه من " شرعية دولية " أو " حق التدخل الإنساني " أو غيرها من المبررات التي باستطاعته أن يخترعها متى شاء .

ولا بد أن نطرح اليوم هذه الأسئلة الجوهرية :

* هل تحررت الأمة فعلاً من الهيمنة الخارجية ؟

* هل تملك الأمة إرادتها في أن تفعل بنفسها ما تشاء في عالم تداخلت فيه المصالح بشكل لم يسبق له مثيل ؟

* هل الأمة قادرة موضوعياً على تحرير إرادتها السياسية والاقتصادية ؟

بكلمة ، هل تحررت الأمة حقيقة من الاستعمار ؟

يكفي للإجابة على هذا السؤال أن نشير فقط إلى قاعدة لا يجهلها أدنى مطلع على الشؤون الدولية ، ألا وهي : " كل دولة عليها ديون تتحول مباشرة إلى دولة مستعمَرة ، لتفقد بالتالي حيزاً كبيراً من حريتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية " . ومن هي الدولة الإسلامية التي ليس عليها ديون ؟

وسنورد فقط أمثلة عن بعض الديون التي لم تسلم منها حتى أغنى الدول الإسلامية ، كما وردت في كتاب " حالة العالم ١٩٩٧"[١] بالمليار دولار أمريكي

| | | | |
|---|---|---|---|
| السعودية | البحرين | الإمارات | الكويت |
| ١٠٠ | ٢,٦٩٨ | ١٢,٧١ | ١٤,١٠ |
| عمان | قطر | العراق | إيران |
| ٣,٠٨٥ | ٣,٩٨٩ | ٩٠ | ٢٢,٣ |

[١] L'etat du Monde1997, Edition la decouverte

| تركيا | ماليزيا | الجزائر | ليبيا (١٩٨٩) |
|---|---|---|---|
| ٦٦,٣٣ | ٢٤,٧٦٧ | ٣٢,٧٨ | ٠,٠٠٥٤ |

نشير إلى أن السعودية أدت ١٠٠ مليار دولار من الديون الخارجية التي ترتبت عليها في حرب الخليج الثانية ، أما ١٠٠ مليار المشار إليها فهي ديون داخلية وتمثل ٧٥% من الناتج الداخلي الخام[٢]

ولم نشر إلى هذه المديونية إلا لنبين العوائق التي تكبل دولاً بكاملها وتخضعها لإرادة المؤسسات المانحة للقروض . فإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للدول ، فما بالك بحركات إسلامية تجد نفسها أمام شتى العوائق ، التي إذا انتصبت بأيدٍ محلية ، فلا شك أن الذي يحركها هي أيدٍ خارجية ، كما تشهد بذلك كل المواقع الإسلامية التي تعرف فيها حركة النهوض الإسلامي عنفواناً وحيوية .

وتجدر الإشارة إلى أن المواجهة كانت قبل الثورة الإيرانية ١٩٧٩ ، موكولة للحكام المحليين ، أما اليوم ، فقد أخذ الأمر بعداً أكثر حدة بحيث أصبحت الدول الغربية تتدخل إما مباشرة أو عن طريق من تسلحهم من وكلائها - العراق ضد إيران أو دول الجوار ضد السودان - وإما عن طريق مجلس الأمن مستصدرة قرارات الترخيص بالعدوان ، مستهدفة الإسلام نفسه وما يحمله من إمكانات التعبئة والمواجهة المستقبلية ؛ وهذا ما يفسر تدمير العراق وحصار ليبيا والسودان والعدوان الوحشي على البوسنة والشيشان .

فعن تركيا ، التي نُحي فيها حزب الرفاه وزعيمه عن مسرح الفعل السياسي ، يقول عبد الله جول نائب رئيس حزب الرفاه المحظور ، والنائب الحالي -١٩٩٩- لرئيس حزب الفضيلة والمكلف بالقضايا الدولية ، متحدثاً عن الدرس الذي استخلصه من التجربة الحكومية لحزبه : " توجد في هذا البلد مراكز سلطة تتجاوز النظام الشرعي ، ولا أتحدث فقط عن الجيش ، فلا يكفي أن يكون الناس معك ، فليست تركيا حقيقة ديمقراطية إذا ما قورنت بباقي أوروبا ، لقد صرنا أكثر واقعية وقللنا من الوعود "[٣]

وليست مراكز السلطة هذه ، التي تتجاوز النظام الشرعي ، إلا الجهات الخارجية ، التي أمرت بإبعاد حزب الرفاه ، ولا زالت بالمرصاد لحزب الفضيلة .

وكذلك الأمر بالنسبة للجزائر فـ " لقد أساء الإسلاميون في الجزائر ، التقدير ؛ لقد فاتهم أن يضعوا في حسابهم أن الجزائر مرتبطة بالوضع الدولي وأن الغرب لن يقبل أبداً بقيام دولة إسلامية جنوب البحر

[٢] **Le Monde: Bilan du Monde1997**

[٣] **عن صحيفة لوموند ديبلوماتيك الفرنسية لشهر فبراير ١٩٩٩**

الأبيض المتوسط "[٤]

وهذا ما يؤكده الباحث الفرنسي فرانسوا بورجا **Francois Burgat** ، في تصريح لجريدة « **La liberation** » الفرنسية ، قائلاً " إن إلغاء المسلسل الانتخابي في الجزائر ، ثم الانقلاب العسكري الذي تلاه ليعتمد الاختيار الاستئصالي [كان] بدعم وتدخل مالي وبوليسي وإعلامي من فرنسا ، وقد كان تدخلاً كثيفاً بالقدر الذي كان فيه سرياً.. "[٥]

وبالنسبة لإيران ، ورد في صحيفة النيويورك تايمز أن الولايات المتحدة رصدت ٢٠ مليون دولار ، لإسقاط النظام . كما أصدرت يوم ٥ أغسطس ١٩٩٦ قانون « داماتو كينيدي » الذي يعلن وضع إيران وليبيا خارج القانون الدولي ، والذي يعاقب الدول التي تتعامل اقتصادياً معهما[٦]

ونفس الأمر للعدوان الذي تتعرض له السودان[٧] بدعم معلن من إسرائيل والولايات المتحدة التي أعلنت عن تقديم ٢٠ مليون دولار من التجهيزات العسكرية لكل من أوغندا وإثيوبيا وإريتريا ، التي انطلق منها العدوان[٨] ، كمكا تقرر بتاريخ **97.11.04** ضرب حصار شامل على السودان وتجميد ودائعها .

فهل تحارب السودان في الجنوب الأقلية المسيحية هناك ، أم أنها تحارب من ورائها الولايات المتحدة وبريطانيا وإسرائيل ؟ لنكن على يقين أنه لو ترك المسلمون يحلون مشاكلهم بينهم ، لانتهت الحرب في السودان و في الجزائر و أفغانستان منذ عهد بعيد ، إلى حل يوقف النزيف ؛ لكن الغرب حريص على إدامة القلاقل في بلاد المسلمين حتى لا تتمكن من الوقوف على رجليها.

ولم يعد قادة الغرب يخفون عزمهم على محاصرة النهضة الإسلامية مهما كلفهم ذلك ، وخاصة بعدما أصبح الإسلام ظاهرة حاضرة في ديار الغرب نفسها . والشواهد على ذلك أكثر من أن تعد ، نشير فقط إلى ما يلي :

صرح « **Jack Baumel** » نائب اللجنة الأوروبية لأسبوعية الإيكونوميست سنة ١٩٩٠ قائلاً : " بعد

---

**[٤] عن كتاب 30 Jours en Algerie , Hind Taarji , EDDIF 1998, p179**

**[٥] جريدة « La liberation » الفرنسية - عدد ١٤/٤٩٤٥ أبريل ١٩٩٧-**

**[٦] -New York Times -26.01.1996**

**[٧] في مارس ١٩٩٥ أعلن أنطوني ليك مستشار الرئيس الأمريكي للأمن القومي أن الولايات المتحدة ستحارب السودان من خلال جيرانه ؛ وبعد ذلك كشفت صحيفة الواشنطن بوست الأمريكية عن تخصيص ٢٠ مليون دولار لتمكين الدول المجاورة من شراء العتاد الحربي . وفي يناير ١٩٩٧ تم الهجوم على السودان من طرف إثيوبيا وإرتريا .**

**[٨] لومند ديبلوماتيك الفرنسية ١٩٩٧ .**

انهيار النظام السوفياتي وانتهاء حلف وارسو أصبح من الواضح أن حلف الشمال الأطلسي - في غياب أعداء يواجههم - لم يعد له نفس مبرر وجوده السابق ، فلنحذر من هذا القوس الجنوبي الواقع بين الجزائر وباكستان والذي تنشط فيه الإيديولوجيات المعادية للغرب .. من الآن لم تعد المشكلة مطروحة على المستوى العسكري أو حتى السياسي ، وإنما صارت مطروحة أكثر فأكثر على المستوى التاريخي ,,[٩]

وهذا النص المنقول من كتاب الأستاذ جارودي « الولايات المتحدة طليعة الانحطاط » يبين لنا السبب الأساسي الذي جعل بلاد المسلمين مستهدفة .

" إن الانقلاب المدعوم من طرف الـ سي. إي.آ CIA الذي أطاح بالنظام النيابي لمصدق الرئيس الإيراني الوطني المحافظ ، وأعاد السلطة للشاه ، قد مكن الشركات الأمريكية من الحصول على ٤٠% من الامتياز الذي كان سابقاً للبريطانيين . وعلقت « نييورك تايمز » على الحدث في افتتاحية وصفت القضية بـ « خبر ممتاز » ، أياً كانت تكلفتها - بالنسبة لكل الأطراف المعنية ( والإيرانيين على الخصوص)-، والتي لنا أن نتعلم منها الكثير إذا استخلصنا العبر.والعبرة الأساسية كالآتي ، وقد أوردتها « نيويورك تايمز » بصراحة عنيفة : من مصلحة دول العالم الثالث التي تملك مصادر طبيعية مهمة ، أن تتدبر هذا المثال : إذا اتبعوا الذين يدعون منهم إلى قومية مهتاجة ، سيؤدون الثمن غالياً . قد لا تكون التجربة الإيرانية كافية لثني - مصدَّقين - آخرين عن الاستيلاء على السلطة في دول أخرى ، غير أنها يمكن أن تدعم موقف الزعماء المتنورين البعيدي النظر ، والذين لهم فكرة واضحة عن أولوياتنا "[١٠]

هل يعني الحديث عن هذه العقبات الخارجية أن الغرب والصهيونية العالمية يتحكمان في كل صغيرة وكبيرة في العالم ، وأن المعركة قد حسمت ابتداءً لصالحهما ؟ طبعاً لا . لأن هذا مخالف لمنطق التاريخ الذي عبر عنه الله ﷻ بقوله { وتلك الأيام نداولها بين الناس } . بل إن دل ما تتعرض له الصحوة الإسلامية من محاصرة على شيء ، فإنما يدل على قوة ورسوخ المشروع الإسلامي ، بل والحاجة الإنسانية الملحة إليه ؛ فلو لم يكن كذلك لما حوصر ، فيجب أن يكون هذا مدعاة للتفاؤل أكثر منه للتشاؤم ؛ لكن التفاؤل لا يكفي إلا إذا أنتج عملاً قائماً على معرفة موضوعية بالواقع .

إن استحضار هذه العقبات الخارجية لا تمليه إلا ضرورة تحري الصواب وامتلاك رؤية موضوعية

---

[٩] عن كتاب حوار التواصل ، د.المهدي المنجرة

[١٠] Editorial du - New York Times - du 06 .05.1954

وشمولية وواقعية عن طبيعة التحديات بأبعادها المختلفة ، يمكن على ضوئها تحديد خطة العمل الكفيلة بوضع قطار حركة النهضة والإحياء الإسلامي على السكة المؤدية حقيقة إلى المبتغى . أما النظرة الجزئية ، فلن يترتب عنها إلا الفشل ولو بذل فيها ما بذل من جهد .

والواقع الذي أبانت عنه التجربة الميدانية للعمل الإسلامي أن مركز ثقل التحدي قد انتقل من الداخل إلى الخارج ، بمعنى أن العقبة الأساسية في وجه النهضة الإسلامية لم تعد هي الجبهة الداخلية على ما فيها من علل ونقائص تحتاج إلى معالجة ، إنما أصبح التدخل الأجنبي الخارجي بمختلف تجلياته الثقافية والاقتصادية والسياسية والعسكرية عاملاً حاسماً ومركزياً في أي تحول يحصل في بلاد المسلمين .

ويترتب بداهة عن هذا أن العمل الإسلامي داخل الرقعة الإسلامية ، على ضرورته وتعدد واجباته لم يعد كافياً لتحقيق ما يصبو إليه المسلمون من استقلال حقيقي يحرر إرادتهم ، ويمكنهم من التحكم بحرية في ثرواتهم . " فلا يكفي أن يكون الناس معك "، كما أكد ذلك عبد الله جول . فلابد من العمل ، موازاة مع الإعداد الداخلي ، على إزالة العوائق الخارجية . هل سيكون ذلك بالدخول في مواجهة اقتصادية أو عسكرية مع الغرب ؟ لا شك أن الفارق الهائل بين إمكانات المسلمين الاقتصادية - حيث لا يزيد الناتج القومي للدول الإسلامية عن ٦,٠٣% من الإنتاج العالمي ، أي ١% من الإنتاج الغربي - والعسكرية والإمكانات الغربية في هذين المجالين يبعدان بشكل تلقائي خيار هذه المواجهة ؛ ثم ، وهذا هو الأهم ، إن خيار المواجهة والإرغام لم يكن هو المعتمد لدى المسلمين لإقامة شرع الله ، فالانتصارات الهائلة التي أحرزها المشروع الإسلامي عبر التاريخ ، لم تكن بسبب قوته المادية بقدر ما تمت من خلال قوته الثقافية والفكرية . وهذا هو الرهان الذي يجب أن تعمل على كسبه الصحوة الإسلامية . فلا يمكن التأثير على الغرب إلا باقتحامه من الداخل بدعوة أبنائه إلى الله تعالى، من خلال حسن تفعيل واستثمار الوجود الإسلامي المتزايد في الغرب ؛ وهذا ما يؤكده د. أحمد يوسف من واشنطن ، متحدثاً عن الولايات المتحدة بقوله : " إن المسلمين في الولايات المتحدة يقفون اليوم أمام مرحلة تاريخية هامة ، حيث أصبح بإمكانهم ، لأول مرة في التاريخ ، أن يؤثروا ثقافياً ودينياً في المجتمع الأمريكي بسبب عددهم الذي يتجاوز الكثير من الأقليات هناك ، وبسبب الانتشار السريع الذي يعرفه الإسلام في الولايات المتحدة ؛ غير أنه حتى الآن لا يوجد تنسيق كبير بينهم ، ولا زالت الأصول الإثنية من عرب وهنود وباكستانيين وأفغان وغيرهم ، تشكل العامل الأساسي في التقارب والانسجام كما لا زال بين المسلمين الوافدين - وإن كان معظمهم قد تجنس - والمسلمين السود محدوداً . غير أن

الإندماج بين مختلف الأقليات الإثنية الإسلامية قد بدأ يحدث من خلال تعاونيات تقام في المساجد والمؤسسات التي تقدم المساعدات للأعمال التجارية للمسلمين "

ونفس الأمر يمكن أن يقال بالنسبة لسائر البلاد الغربية ، التي أصبح فيها الحضور الإسلامي واقعاً ولم يعد بوسع أحد أن يتجاهله .

إن واقع العالم المعاصر ليضع على كاهل الصحوة الإسلامية عبئاً مزدوجاً يتمثل في بناء الذات على المستوى الداخلي ، بشكل يؤدي مع الزمن إلى رفع كفاءة الأمة على مختلف الأصعدة ، ثم المساهمة ، على المستوى الإنساني ، في إقامة ما أسماه الأستاذ جارودي بـ « نظام ثقافي عالمي جديد » ، يقيم علاقة الدول والشعوب على أسس من القيم المتسامية [11]، وأسس من العدل والإنصاف ، واحترام حق الجميع في تقرير مصيره . ولا شك في أن يكون للقيم الإسلامية دور الريادة في هذا المضمار .

[11] **نشير إلى أن قيم العدل والإنصاف لا تكون فاعلة إلا إذا قامت على عقيدة ، وإلا تحولت إلى شعارات ، تستدعى بشكل انتقائي لخدمة أغراض الأقوياء .**